أ.د مرزوق بن تنباك

7-11-1430هـ

الانتماء الوطني: دراسة للحالة السعودية

نحاول بيان هذا المصطلح الذي أصبح مفهوماً عاماً في الأدبيات المعاصرة للأمم للشعوب وللأفراد والجماعات، ونجتهد في تحديد معاني الانتماء والهوية ومرادفاتها التي تعني الانتماء بمعناه الواسع والانقطاع إلى دلالة تحدد معنى المواطنة والهوية وكلها لها من الدلالات ما يوحد معانيها حين ترتبط في قيم اعتبارية واجتماعية، معترف بوجودها ومقدر الانتماء لها والاتصاف بصفاتها، وقد تتسع مساحة الانتماء لتشمل الثقافة وغيرها من محددات الشخصية الإنسانية وبالتالي يتبلور مفهوم الانتماء من جميع هذه العناصر والمكونات التي تخلق في نهاية المطاف شخصية المرء المتزن وتعبر عن ذات سوية تؤمن بحقوق المواطنة الكاملة لكل فرد في المجتمع على ثلاث مقومات أساسية " الجماعة البشرية المتحدة بالتعاقد، والأرض التي تعيش الجماعة داخل حدودها، والهوية السياسية والقانونية التي تعرف بها الجماعة نفسها تجاه الهويات الأخرى" .(1)

وقد تتعدد الانتماءات فهناك الانتماء الوطني الشامل وهناك الانتماء الثقافي والانتماء الاجتماعي والثنائيات الأخرى مهما تعددت، وكل ذلك يجمعه جامع واحد هو الانتماء للوطن في الدرجة الأولى وللهوية الثقافية بعد ذلك، وهما مناط التكليف. ولأن وظيفة الهوية الوطنية هدف كل المهتمين في مستقبل الأمة فقد قامت النظريات التربوية والدراسات الاجتماعية على تحديد العوامل المؤثرة في خلق شخصية الإنسان وبنائها وثبات مبادئه وتحديد علاقته في ما حوله وما يحيط به ووضعت متغيرات الحياة وثوابتها في ميدان الإدراك المبكر للإنسان وتأصيل الذات، ولاشك أن تميز الانتماء هو أهم ما عملت النظريات التربوية الحديثة على تعميقه والاهتمام به. تحققت الهوية في زمننا الحاضر بصورة المواطنة التي عبرت عنها الهوية، وعن الانتماء الوطني وصارت هي المرجعية للإنسان في ثقافته وهويته وحقوقه وواجباته وأصالته وأصبح يعبر عن انتمائه الوطني معرفاً انتسابه إلى الوطن أكثر مما يعرف نفسه بالنسب أو المذهب، أو الدين والعرق، وقد أصبحت مرتكزات

www.mtenback.com

الهوية تعتمد على المواطنة التي هي العنوان الذي يعتمده التعريف بالإنسان والتحديد لشخصيته وملامح حياته وقد أصبح يعبر عنها بالمواطنة نسبة إلى الوطن الذي ينتمي إليه الإنسان ويحمل هويته. **وإذا كانت الهوية والمواطنة والانتماء** من باب المعاني المترادفة في كثير من الحالات وأن التمييز بين هذه المسميات قد لا يكون واضحاً لدى عامة الناس بل يكاد أن يكون كذلك حتى لدى خاصتهم إلا أن كثرة استعمال هذه المفردات في حياتنا المعاصرة أعطاها معنى الاتصال والألفة وحدد دلالتها في أذهان الناس، لم نصل إلى مرحلة التأصيل الصارم لما نعنيه عندما نطلق كلمة المواطنة أو الهوية الوطنية. وفكرنا التراثي لا يحمل معاني هذه المفردات بدلالتها الحاضرة لكنه كان يحمل معناها الاجتماعي بمفردات أخرى قد لا تبعد عنها كل البعد، ولعل أول من أشار إلى معنى المواطنة والهوية الجهوية بدل الهوية **العشائرية والنسبية** في تاريخنا القديم وثقافتنا العربية هو الأحنف بن قيس الذي أعطى المواطنة الهوية حقها الذي تحاول الثقافة المعاصرة أن تعطيه لها، فأشار في كلمة مأثورة له إلى حقوق المواطنة قبل حقوق الانتماء القبلي والعشائري حين قال:" لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام".

إذن معنى الهوية الوطنية قديم في الثقافات الإنسانية وإن كان مسماها محدثاً في عصرنا الحاضر معرفاً تعريفاً عالمياً أو شبه عالمي وحقيقته الحاضرة ارتباط الإنسان بالأرض التي يعيش عليها أو يولد فيها مع الدلالة السياسية والمحيط الذي تحكمه أنظمة أو اتحادات دولية ووطنية تجاوز كل الاعتبارات القديمة كالعرق واللغة والدين والجنس إلى صهر كل تلك في معنى واحد هو المواطنة والانتماء لها دون غيرها من الروابط الاجتماعية والثقافية وغير ذلك. فالمواطنة والانتماء في العصر الحاضر رابط قانوني ومعنوي يلغي كل ما عداه من صور الانتساب والانتماء وكل الروابط غير رابطة الهوية التي تترجمها المواطنة المعاصرة لا اعتبار لها.

الهوية الوطنية والانتماء:

دراسة الحالة في المملكة.

بدأ العصر الحديث والحضارة المدنية بالهوية الوطنية الخاصة التي تحقق الانتماء لسكان كل دولة باعتبار وحدتها السياسية واجتماع سكانها في كيان مستقل واحد وإن

www.mtenback.com

تعددت ثقافاتهم ولغاتهم وجنسياتهم وأديانهم وقد اهتم المربون واهتمت المناهج التي تعد لتربية النشء بإبراز الجانب المعرفي لتعميق الانتماء للهوية الوطنية وترسيخها في أفكار الشباب وتأصيل دلالتها وإيضاح الجوانب المشرفة التي يتجاوز بها الإنسان انتماءاته وصلاته الاجتماعية والثقافية وغيرها من الروابط إلى رابطة عامة شاملة كاملة تلك هي هوية المواطنة بكل ما تعنيه من معاني.

والمملكة العربية السعودية مثل كل الدول والأقطار اهتمت اهتماماً كبيراً بتأسيس بنية الانتماء للهوية العامة " المواطنة " التي تجمع كل المواطنين في مجال الانتماء الواسع والمدلول المدرك للهوية المعبرة عن المجتمع. وكان المربون والمهتمون بالشأن العام يعلمون علم اليقين واقع سكان المملكة قبل التوحيد السياسي للوطن الكبير ويعلمون التكوينات والولاءات واختلاف العادات والثقافات وهو أمر معلوم بالضرورة، وقد قامت المملكة وتجاوزت هذه الثنائيات ردحاً من الزمن لأن الوعي الكامل بأهمية الانتماء للهوية الوطنية كان حاضراً في الأذهان بعد مرحلة من التشتت التي مرت بظروف صعبة **انتهت بنهاية سعيدة وهي نهاية التشرذم والاختلاف وبداية الاجتماع** بالوطن وانتساب أبنائه إلى المواطنة والتزامهم بآدابها وحقوقها وواجباتها. **من هنا نتفق** عند المعنى الحاضر للمواطنة وعلاقتها في بنيان الهوية المستقبلية والمتغيرات الحادثة في الحياة والسلوك الاجتماعي الذي يعيشه الناس في المملكة باعتباره الجامع الموحد مع اعتبار متغيرات العصر الحاضر ومؤثراته المادية والاجتماعية والثقافية، وهي العناصر الحية في تنمية ثقافة الإنسان وتربية سلوكه الذي يعمق في وجدانه قيماً تحترمها الأجيال وتنميها الأمم في كل مجالات الحياة ومتطلبات الاجتماع البشري الذي يعيش على أديم الأرض الجامعة لهم. وعلى هذا يقول المهتمون في الدراسات الاجتماعية أن الإنسان (يحيى في بيئة ذات بعدين أولهما بيئة جغرافية أو ما يطلق عليها أحياناً البيئة الطبيعية التي تشمل جميع الظواهر التي ليست بالأساس من صنع الإنسان كالأرض والمناخ والتضاريس وما إليها. وثانيهما البيئة الثقافية التي تتضمن جميع المثيرات الثقافية التي يتعرض لها الإنسان في المجتمع، ويكشف لنا التاريخ أن الإنسان ابتدع البيئة الثانية لمواجهة بعض ظواهر البيئة الأولى)(2)

www.mtenback.com

ولأن الإنسان في طبيعة تكوينه يتعرض للمؤثرات في بيئته ويتفاعل معها في تقبل سريع لما يواجه من متغيرات بالقبول أو الرفض حسب الواقع الذي يعيش فيه والثقافة التي تعرض فيها هذه المتغيرات المتسارعة مع اعتبار نموه واكتسابه المعرفي وهو في كل الأحوال سريع التغير أكثر من غيره وقد تعرضت بعض الدراسات لرصد القيم لدى الإنسان في سن الطفولة المبكرة وحتى آخر عمره وقد لاحظت هذه الدراسات " بعامة أهمية الفصل بين الأحكام الأخلاقية المرتبطة بالجانب الاجتماعي وبين الأحكام الأخلاقية المرتبطة بالمثل العليا فالأحكام في الأولى لا تصدر بناء على وجود سلطة أو عقاب بل تصدر بناء على العرف والتقاليد، أما الأحكام في الثانية فتتبع من القيم العليا التي يحددها الضمير" (3)

كما لاحظت الدراسة أن هناك نسقاً لاكتشاف الأحكام الأخلاقية المرتبة بالجانب الاجتماعي في مراحل العمر من 7-18 ... وفي إطار التمييز بين الأوامر الأخلاقية التي يكون الحكم فيها على أساس الضرر الذي يلحق بالآخرين نتيجة القيام بفعل معين" (4)

وبما أن المتغيرات في هذا الوقت هي شديدة السرعة وحاضرة في أذهان الناس ومتوفرة وسائلها وأهم تلك الوسائل هي الانتشار الكبير لمصادر المعرفة والإطلاع على وسائل مثل الإنترنت والفضائيات وسرعة انتقال المعلومة وتكرار الأحداث أمام الأجيال الذين يواجهون هذه المعلومات والتدفق المرئي والمسموع بعقول قابلة للتأثر السريع، لذا كان لزاماً على المجتمعات مواجهة هذه الثقافات المتغيرة ومحاولة ترسيخ ثوابت المجتمع والحفاظ على قيمه في نسق اجتماعي يتوفر فيه الضابط الأخلاقي حين يتعرض المرء إلى الجانب المحايد " على هذا الأساس يمتص الإنسان.. أنماط السلوك المختلفة السائدة في المجتمع، لذا فإنه لو عزل عن الثقافة لاتبع سلوكاً مختلفاً يمكن أن يوصف بأنه ساذج وبدائي،،، والسلوك في مجمله لا يخضع في الغالب للعقل قدر خضوع العقل للمعايير الثقافية، حيث ان الأشياء والمعاني تفقد دلالتها خارج إطارها الثقافي ولذا يقال إن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة" (5)

www.mtenback.com

ولأن هذه المرحلة هي مرحلة مر بها كل إنسان في الوجود وعليها تقوم تطلعات المجتمع و تنبؤات مستقبله وقد اعتمد الدارسون على تقويم النتائج التي تترتب على ما يقدم للإنسان من ثقافة البيئة المحيطة به والتعليم الذي يتلقاه في ذلك المحيط الاجتماعي وتلك البيئة الحاضنة لنشاطه وتفكيره وتصوراته للمعاني والقيم التي يربى عليها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

دراسة الحالة في السعودية:

إن دراسة الحالة في المملكة العربية السعودية هي ما ستدور حوله هذه الورقة ولو باختصار شديد حتى نخلص إلى ماهية المواطنة التي نسعى جميعاً في كل مجالات واهتماماتنا إلى تحقيق الحد الأدنى من شروطها والانتماء إليها. وعندئذ نتعرض لحياة الإنسان وصلته بالهوية التي تحقق ذاته وتشعره بوجوده في المجتمع حيث يعيش كامل المسؤولية واضح التوجيه سليم الانتماء موحد الذات الفاعلة في حياته حتى يقوم بمسئوليته فرداً في جماعة أو أمة تحدد شخصيتها ملامح واضحة للهوية التي تشركه بحقه في كل مواطن في أرضه يعيش معه ويشاركه الآمال والرغائب بإحساس وطني واحد.

قبل عصر الدولة:

لقد كانت المملكة قبل توحيدها بل إن شئت قبل عصر الدولة الحديثة مكونة من كم كبير من الولاءات والانتماءات على مساحة واسعة من الأرض بل على قارة كاملة تتكون من أقاليم وإمارات ومدن وقرى يجمعها رابط واحد **هو العروبة والإسلام** وتفرقها بواعث كثيرة من الرغبات والولاءات والطموحات **وتتقسمها الدول والإمارات والعشائر والجماعات.**

كل ذلك كان على أديم الأرض التي هي اليوم المملكة العربية السعودية قبل توحيدها على يد الملك عبدالعزيز بن سعود. كان ما قبل عصر الدولة في الجزيرة العربية واسع الانتماءات كثير التردد في ولاءاته بين **الإقليم والقبيلة وبين الأسرة والقرية** وما إن اجتمعت الكلمة وقامت وحدة المملكة العربية السعودية حتى شع أمل جديد مع عصر جديد هو عصر الدولة التي تصهر كل ما سبقت الإشارة إليه من تقسيمات، وتضع مع سور الوحدة السياسية سور الوحدة الوطنية وتستبدل المواطنة وحقوقها بصور التشرذم والتفرق والاختلاف، وقد كانت البداية في قمة الوعي لهذا الأمل الجديد أمل الوحدة المنصهرة في كل معاني الانصهار وأمل الانتماء الكامل لمعنى واحد ومسمى واحد هو **معنى الوطنية ومسماها.** وقد سار الأمر في أول عهد الوحدة سيراً حسناً في تنمية شعور المواطنة وإحلاله محل الصدارة في كل المعاملات

www.mtenback.com

والتعاملات حتى كادت أن تمحى كل مفاهيم الماضي وانتماءاته وأن يكون الجميع **أمام توصيف** جديد وهوية معتبرة هي وصف الوطن وهويته التي هي المواطنة. ولعل أبرز مثال على ذلك ما قام به الملك المؤسس في أول سنيات حكمه عندما تخلص من آثار العصبيات والتصدعات الاجتماعية وأقدم ببسالة على حل الجيش الذي وحد المملكة والذي كان في **جل تنظيمه عشائري المترع والتكوين** وأحل محله جيشاً وطنياً لا ينتمي إلى أيدولوجيا فكرية ولا روابط قبلية وجهوية وإقليمية بل كان الباب مفتوحاً لكل أبناء الوطن على أساس الوطن للجميع وأساس المساواة بين كل الفعاليات دون استثناء.

هذه هي الصورة الأولى لنشأة الدولة وشروط المواطنة التي سعت إلى تحقيقها لكل أبنائها ولكل من يحمل هوية الوطن الجامع ويشعر بالانتماء إليه. **وكان** الأمل كبيراً في نمو تلك التجربة الحضارية المبكرة لاسيماً أنها بدأت مع بداية عصر انتشار التعليم واتساع مساحته على كل أرض المملكة وهو النتيجة الضرورية والمتوقعة لدفع مفهوم المواطنة وتقاليدها إلى الأمام مع جيل من المتعلمين وصفوة المثقفين الذين نالوا من العلوم والمعارف ما يتحقق بمثله مشاركات فاعلة ومضمونة النتائج في تسريع الوعي الاجتماعي والسير نحو هوية واحدة لا تختلف ولا تتعدد فيها الاتجاهات والولاءات.

قفز التعليم في كل مراحله وفي جميع مناطق المملكة وأصبح الجيل الذي يخرج من مؤسسات التعليم يحمل هوية الوطن وينتمي إليه في ظاهر العلاقة العامة التي يظهر فيها ويتعامل الناس بها أيضاً إلا أن الانحياز إلى العصبية الإقليمية والمناطقية كانت هي البارزة في التعامل.

مضى ثلاثون عاماً منذ بدء الوحدة والصورة الظاهرة هي الولاء الظاهر للهوية والمواطنة ومع انتقال المجتمع كله من القرى والأرياف وهجرته الداخلية إلى المدن والاستقرار فيها كان المأمول أن يزيد الانصهار الاجتماعي بزيادة الاستيطان في المدن وأن تكون المدينة الحديثة التي اكتظت بهؤلاء القادمين من كل القرى والأرياف والبوادي هي بوتقة الصهر الطبيعي لهوية واحدة غير متعددة وإنعاش اللحمة والسدى التي ينمو بها **مجتمع مدني** تقوم صلاته وانتماءاته على الانتساب لهوية واحدة وهي

www.mtenback.com

الهوية الوطنية، هذا هو المأمول والمتوقع إلا أن التكدس السكاني الكبير في المدن وانجذاب الأطراف والأرياف للحواضر والتوسع الكبير في ذلك نقل معه صورة الحياة القديمة التي كانت سائدة قبل وحدة الدولة وأصبح التعليم والاتصال بين الناس شكلاً ظاهراً لا يحقق وحدة وطنية صحيحة ولا يبني هوية مدنية مشتركة تقضي على رواسب الماضي البعيد الذي كانت الذاكرة الإنسانية مشبعة به منذ القدم فحملت المدينة الحديثة والثقافة **في تلافيفها ماضي الإقليمية والعشائرية**، ولكن بأسلوب جديد منظم ومختلف عن ذاك الذي كان سائداً في الماضي قبل عصر الدولة، وان كان يحمل معنى ذلك الماضي وأسلوبه مع اختلاف الحال بين ذاك الماضي البعيد وهذا الحاضر المختلف.

نشأ عن هذه الحال ازدواج في المفاهيم الوطنية والحقوق المشتركة مما أضعف الانتماء للهوية الواحدة وعزز الانتماءات القديمة التي كانت معهودة لسكان الجزيرة العربية قبل أن تحمل اسمها الجديد الوحدوي " **المملكة العربية السعودية**" وكان الحافز على هذا الانفصام الوحدوي في الهوية هو شعور كل فئة من فئات المجتمع أن لها من الماضي الذي تحفظه الذاكرة شيئاً مختلفاً عما يراد لها من متغير تحمله مضامين المواطنة الحادثة في ثقافة المدينة العصرية والهوية السياسية.

www.mtenback.com